نافذة على فكر علي عزت بيجوفيتش

محمد يوسف عدس

المحافظون ودعاة الحداثة:

فكرة النهضة الإسلامية تنظر إلى الإسلام لا من حيث قدرته فقط على تهذيب الإنسان الفرد وإنما أيضاً على تنظيم حياته الإجتماعية فى هذا العالم ، وسوف نرى أن هذه الفكرة تصطدم (فى البلاد المسلمة) دائماً بنوعين من الناس يمكن أن نسمى النوع الأول بالمحافظين الجامدين ونسمى النوع الثانى بدعاة الحداثة .. يتشبّث المحافظون بالأشكال القديمة ولو كانت محنّطة ، ويتطلع دعاة الحداثة إلى الأشكال الأجنبية مهما بلغت من السفاهة .. يجرّ الأولون الإسلام إلى الوراء نحو الماضي .. وبالذات نحو عصور الضعف والإنحطاط الثقافي ، ويُقحم الآخرون الإسلام في متاهات حاضر ومستقبل أجنبي مقطوع الصلة بتاريخ المسلمين وتطلّعاتهم إلى حياة أفضل .

الغريب أنه برغم هذا الإختلاف الشاسع بين التّوجّهين فإن المحافظين الجامدين ودعاة الحداثة بينهما شئ مشترك ، فكلاهما ينظر إلى الإسلام من زاوية ضيقة ، حيث لا يرى فيه إلا [ديناً مجرّدًا] بالمفهوم الغربي لهذه العبارة بمعنى أنه علاقة روحية بين الفرد وربه تقتصر شعائره على تصفية النفس من الآثام والذنوب والخلاص من الخطيئة .. ويرى على عزت بيجوفيتش في هذا الموقف قصوراً في فهم لغة الإسلام ومنطقه ، بل إخفاقاً أكبر في فهم روح الإسلام ودوره في التاريخ وفي العالم .. وقد أدى هذا القصور إلى سوء فهم جسيم للإسلام باختزاله إلى مجرد [دين بهذا المعنى الغربي] ، وتلك فكرة خاطئة تماماً .. لأنها تتناقض مع جوهر وروح الإسلام .. وتتغافل عن الحقائق الأساسية التى جاء بها القرآن فيما يتعلق بأصل الإنسان ورسالته التى كلّفه الله بها فى عمارة الأرض ...

فمقترب الإسلام فى هذه الناحية (كما يؤكد بيجوفيتش) هو مقتربٌ متميزٌ حيث يدعو إلى الجمع فى إطار واحد بين الإيمان والعلم .. بين الأخلاق والسياسية .. بين المُثل العليا والمصالح . يدعو الإسلام إلى ضرورة الاعتراف بوجود عالمين : العالم الطبيعي البرّانيّ الظاهريّ والعالم الروحي الجُوّانيّ .. ويعلمنا أن الإنسان بتكوينه الفريد الذى فطره الله عليه هو

الذي وصل بين هذين العالمين .. وبدون هذا التوحيد بين العالمين سنجد الدين يميل إلى التخلّف (إذْ يرفض أي نوع من أنواع الحياة المنتجة) .. ونجد العلم يميل إلى الإلحاد ...

وانطلاقاً من وجهة النظر التي تذهب إلى أن الإسلام دين مجرد سنرى أن المحافظين يستنتجون أن الإسلام [لا ينبغي له] أن يسعى لتنظيم العالم الخارجي، ونرى دعاة الحداثة يستنتجون أن الإسلام [لا يستطيع] تنظيم العالم الخارجي محتجّين بحديث منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منطوقه (أنتم أعلم بأمور دنياكم) يسوقونه دائما مقطوع الصلة بالمناسبة التى ذُكر فيها فى إطارها المحدّد .. ويبالغون فى إطلاقه وتعميمه بحيث يجعلون من الإسلام شيئا آخر غير ما جاء به القرءان وأكّدته السّنة النبوية وما هو معروف من الدين بالضرورة .. والمهمّ أن النتيجة العملية لكل من وجهتى النظر المحافظة والحداثية فى هذه النقطة هى نتيجة واحدة : [إستبعاد الإسلام من الحياة والمجتمع] ...

المحافظون:

لقد أُبتلينا دائما بفئات من الناس [لانسميهم بأسمائهم ولا نشير إلى مؤسساتهم أو إنتماءاتهم الفكرية أو الطائفية] .. إنما نقول : أن هؤلاء الناس – خلافاً للتعاليم الواضحة أنه لا كهنوت في الإسلام – قد جعلوا من أنفسهم طبقة منظّمة هيمنت على تفسير الإسلام ووضعت نفسها وسيطاً بين الإنسان والقرآن . ولأنهم جعلوا من أنفسهم طبقة فقد أصبحوا [لاهوتيين] متحجرين في معتقداتهم .. ولأن الإسلام في نظرهم قد تنزّل وتم تفسيره بصفة نهائية فإن أفضل شئ ممكن هو أن نترك كل الأمور كما وصلت إلينا وتم تحديدها منذ ألف سنة مضت أو أكثر ، وبهذا المنطق المتحجر أصبحوا أعداءًا أشدّاء لكل جديد (يصمونه بالبدعة المنهيّ عنها) ، فأي محاولة لتطوير الأحكام الفقهية – بمعنى تطبيق مبادئ القرآن والسنة على المواقف المستجدة التي ما فتئت تظهر خلال تطور الحياة – يواجهها هؤلاء أولا بالرفض .. ثم بالطعن في سلامة إيمان أصحاب هذه المحاولات .. إنهم يفسرون موقفهم هذا بأنه حب للإسلام وغيرة عليه .. ولكن النظرة التحليلية العميقة لهذا الموقف تكشف لنا أنه حب مَرَضيّ شاذّ لأناسِ متخلفين ضيّقي الأفق .. لقد إختنق الإسلام الحيّ بعناقهم المميت ...

ولكن قد يكون من الخطأ الاعتقاد بأن الإسلام قد ظل كتاباً مغلقاً في يد هؤلاء "اللاهوتيين" .. حقاً لقد ازداد إنغلاقاً عن المعرفة المستنيرة ، ولكنه في نفس الوقت إزداد

انفتاحاً على الخرافات والعادات القبلية والمحلية الموروثة .. فقد سمحوا بتدوين كثرة من الأشياء اللامعقولة في هذا الكتاب .. أشياء غريبة تماماً عن الفكر الإسلامي اشتملت على خرافات محضة .. إن كل من عرف طبيعة اللاهوت يعلم لِمَ كان عاجزاً عن الصمود أمام إغراء الأساطير ..؟ بل أكثر من هذا يرى فيها إثراء للفكر الديني .. وهكذا رأينا عقيدة الوحدانية التي جاء بها القرآن – وهي أنقى وأكمل الأفكار الدينية التي ظهرت في التاريخ – يُضحى بها تدريجياً بينما ظهرت في الممارسة تجارة بغيضة في العقيدة .. إن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم شُرّاح العقيدة أو حُرّاسها قد جعلوا من هذا وظيفة مقبولة ومربحة .. ودون وخز من ضمير وصلوا إلى وضع رضوا فيه باستبعاد العقيدة عن مجالات تطبيقها في الحياة

والآن وقد بدأت جميع الدلائل تشير إلى أن العالم الإسلامي يصحو من رقدته فإن هذه الفئة أصبحت تمثل التعبير عن كل ما هو كئيب ومتصلب في هذا العالم .. لقد برهنت هذه الفئة على عجزها عن اتخاذ أي نوع من الخطوات الإيجابية لتدعيم العالم المسلم في مجابهة الخطوب الفادحة التي تنزل به في كل يوم ...

أنصار الحداثة :

أما أولئك الذين يُدْعون بالتقدميين أو العصريين أو المستغربين إلى غير ذلك مما يسمون به أنفسهم .. فإنهم يمثلون في الحقيقة سوء حظ هذه الأمة المسلمة .. إنهم كثرة كثيرة .. ذات نفوذ وتأثير .. إنهم يهيمنون بشكل ملحوظ على الحكومات وعلى التعليم والحياة العامة .. وهم يرون في فئة المحافظين أنهم وحدهم هم الفئة التى تمثّل الإسلام وتشخّصه ويركزون عليهم فى إعلامهم وصحفهم .. ويدعون الآخرين إلى أن ينظروا نفس النظرة إلى الأسلام .. متجاهلين الإصلاحيين وأنصار الوسطية فى الدعوة الإسلامية وهم كثرة غالبة .. ولكنهم معرّضون دائما لعمليات إقصاء وتضييق واضطهاد متواصل .. ومحاولة مستمرّة لتشويه حركاتهم ومقاصدهم ...

وهكذا إستطاع دعاة الحداثة من موقعهم فى السلطة والإعلام أن يُنشئوا جبهة ضد كل ما تمثله الفكرة الإسلامية .. ثم زعموا لأنفسهم دور المصلحين في البلاد المسلمة .. ولكن بيجوفيتش يكشفهم لنا ويضع لنا مؤشّرات تعرّفنا بهم من خلال سماتهم وخصائصهم .. فيقول : إنهم أناس يفخرون بما كان يجب أن يخجلوا منه ، ويخجلون مما كان يجب أن يفخروا به..! إنهم "أبناء آبائهم" فقد تعلموا في بلاد الغرب ثم عادوا من هناك بشعور عميق بالدّونية تجاه العالم الغربي المتقدم الغني ، وشعور بالاستعلاء على مجتمعاتهم التي جاءوا منها وقد أحاط بها الفقر والتخلف .. لقد حُرموا من التربية الإسلامية الصحيحة وفقدوا

كل صلة روحية أو أخلاقية بشعوبهم ومن ثم فقدوا معاييرهم الأولى وأصبحوا يتخيلون أنهم بتخريب الأفكار المحلية والتقاليد والمعتقدات .. وبتقديم أفكار غريبة سيقيمون أمريكا – التي يكنّون لها إعجاباً مبالغاً فيه – على أرض بلادهم في يوم وليلة .. إنهم بدلاً من العمل على تطوير إمكانات بلادهم الخاصة ذهبوا ينفخون في شهوات الناس ويضخمون رغباتهم المادية ، فأفسحوا بذلك الطريق أمام الفساد والفوضى الأخلاقية ، إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا أن قوة العالم الغربي لا تكمن في أسلوبحياته ، وإنما في طريقته في العمل .. وأن قوته ليست في الموضة والإلحاد وأوكار الليل وتمرّد الشباب على التقاليد ، وإنما تكمن في الكدح الذي لا مثيل له ، وفي المثابرة والعلم والشعور بالمسئولية التي تتميز بها شعوبهم ...

المشكلة إذن ليست في أن مستغربينا قد استخدموا أساليب أجنبية ، وإنما في أنهم لم يعرفوا كيف يستخدمونها أو يضعونها في موضعها الصحيح .. وأنهم لم يفلحوا في تطوير حسّ قوى يكفي للتمييز بين ما هو صحيح وما هو خطأ ، ومن ثم أخفقوا في اختيار المُنتَج الحضاري المفيد واستعاروا لمجتمعاتهم بدلاً منه عرضاً مرضياً من أعراض هذه الحضارة فكان مُنتجاً ضاراً بل قاتلاً ...

ومن بين السلع المشكوك في قيمتها – مما يجلبه مستغربونا معهم إلى أوطانهم – أفكار (ثورية) مختلفة وبرامج إصلاح ، و(مذاهب إنقاذ) موصوفة لعلاج جميع المشكلات ، فإذا تأملناها ملياً نجد – لدهشتنا – نماذج لا يصدقها عقل في قصر نظرها وارتجالها ...

خذ لذلك مثلاً "مصطفى كمال أتاتورك" الذي كان قائداً عسكرياً أكثر منه مصلحاً إجتماعيا ، والذي ينبغي وضع خدماته لتركيا في حجمها الصحيح ؛ ففي أحد برامجه الإصلاحية منع لبس الطربوش .. ! وطبعاً ظهر على الفور أن تغيير غطاء الرءوس لا يعنى تغيير ما في هذه الرءوس ولا تغيير عادات أصحابها ..

لقد واجهت أمم كثيرة خارج العالم الغربي – على مدى قرن من الزمن – مشكلة: كيف تنتسب إلى الحضارة الغربية ، هل ترفضها كلية .. أم تختار منها بحذر .. أم تأخذها كلها بخيرها وشرها ..؟ ولقد تحددت عوامل سقوط كثيرة من هذه الأمم أو ارتفاعها بالطريقة التي أجابت بها على هذا السؤال المصيري .. فهناك إصلاحات تعكس حكمة أمة ما ، وإصلاحات تمثل خداع أمة لنفسها ، والمثل على ذلك قائم في نموذجين هما: اليابان وتركيا.

اليابان وتركيا :

في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يجد المتأمل أن كلا الدولتين تُقَدمان صورة شبيهة جداً لدول أخرى مثيلة .. فقد كانت الدولتان تمثلان إمبراطوريتين قديمتين، كل منها له ملامحه ومكانته التاريخية .. كلاهما وجدت نفسها على نفس المستوى

من التطور .. كلاهما يمتلك ماضياً باهراً .. وهذا يشير إلى الامتياز العظيم وإلى العبء العظيم في نفس الوقت .. وفى كلمة واحدة كانت فرصتهما في المستقبل – عند نقطة معينة– تكاد تكون متساوية ..

ثم جاءت الإصلاحات المشهورة في كل من الدولتين .. أما اليابان – فلكي تستمر في الحياة بطريقتها الخاصة وليس بأي طريقة أخرى – حاولت أن توحدّ بين تقاليدها الخاصة وبين متطلبات التقدم .. بينما اتجه التقدميون دعاة الحداثة في تركيا إلى سلوك الطريق المعاكس (فتخلوا عن تقاليدهم واندفعوا في طريق التغريب) .. فماذا كانت النتيجة؟ أصبحت اليوم تركيا دولة من الدرجة الثالثة ، بينما اليابان ترتفع إلى القمة بين أمم العالم ..

ويبدو الاختلاف بين فلسفة الإصلاح الياباني وفلسفة الإصلاح التركي أكثر وضوحاً في موقفهما المختلف من مسألة حروف الكتابة : حيث قامت تركيا بإلغاء حروف الكتابة العربية في حين أن هذه الحروف لبساطتها ولأنها تتألف من ثمانية وعشرون حرفاً فقط – تعتبر واحدة من أكمل وأرقى حروف الكتابة وأكثرها انتشاراً في العالم . أما اليابان فقد رفضت دعوة مستغربيها في تبنى حروف الكتابة اللاتينية وأصرّت على الاحتفاظ بنظام كتابتها المعقد الذي يحتوى على **880** "إيديوجرام" (شكلاً صينياً) بالإضافة إلى **46** حرفاً أخرى .. ورغم ذلك فلا يوجد اليوم في اليابان أمية بينما نجد تركيا بعد أربعين سنة من استخدام الحروف اللاتينية تزيد الأمية فيها خمسين في المائة من تعداد السكان الذين يجهلون القراءة والكتابة .. وتلك نتيجة تجعل الأعمى يسترد بصره ..!!

وليس هذا هو كل شئ ، فقد أصبح واضحاً أن القضية لم تكن مجرد حروف كتابة هي مجرد وسيلة للتسجيل ، ولكن الأسباب الحقيقية وبالتالي النتائج التي ترتبت عليها كانت أكثر عمقاً وأكبر خطراً .. فجوهر كل حضارة أو تقدم إنساني يكمن في الاستمرارية وليس في التخريب والتنكّر للماضي .. إن طريقة الأمة في الكتابة هي الطريقة التي تتذكر بها الأمة وتستمر في وجودها التاريخي .. وعندما ألغت تركيا الحروف العربية فقدت كل ثراء الماضي الذي حفظته الكلمة المكتوبة .. وبهذا الإجراء الغبيّ وحده وُضعت الأمة على حافة البربرية .. ومع سلسلة أخرى من الإصلاحات المماثلة وجدت الأجيال التركية نفسها بلا دعامة روحية تقوّم حياتها .. وجدت نفسها في فراغ روحي بعد أن فقدت ذاكرتها الماضية .. فمن الذي إستفاد بهذا الوضع المأساويّ ..؟

إن دعاة الحداثة في العالم المسلم حينذاك لم يكونوا من الحكماء الذين انبثقوا من صميم شعوبهم .. يعرفون كيف يطبقون بطريقة جديدة الأفكار والقيم القديمة على الظروف المتغيرة ، إنما ناصبوا هذه القيم العداء .. فعلوا ذلك بسخرية باردة ، وبقصر نظر رهيب،

وسحقوا بأقدامهم كل ما هو مقدس عند الناس ، فدمّروا الحياة ، واستزرعوا بدلاً منها حياة مصطنعة غير حقيقية .. ونتيجة لهذه البربرية التي سادت في تركيا كما سادت في كل مكان ظهرت دول مزيفة .. أصابها الاضطراب الروحي وفقدت ملامحها العريقة كما فقدت حاسة الاتجاه الصحيح .. كل شئ فيها أصبح سطحياً زائفاً ، وفقد الإنسان فيها القوة والحماسة، وهكذا أصبحت الأمة مسخاً مشوّهاً يشبه مدنها الحديثة ذات البريق المصطنع الذي يخفى وراءه باطناً خرباً ..

فهل تستطيع دولة لا تعرف هويّتها ولا تعرف أين تمتد جذورها أن تكوّن لنفسها صورة واضحة عن الموقع الذي تنتمي إليه ، والأهداف التي يجب أن تسعى لتحقيقها ..!؟

قد يبدو النموذج الذي قدمه "أتاتورك" مفجعاً، ومع ذلك فإنه يمثل النمط الغربي لفهم مشكلات العالم المسلم كما يمثل الطريقة التي يفكر بها الغربيون والمستغربون لإصلاح هذه المشكلات .. وقد أدى بنا هذا إلى مصير واحد: التغريب والانسلاخ والهروب من مواجهة المشكلات الحقيقية ، ومن العمل الجاد للارتفاع بالناس أخلاقياً وتعليمياً .. والتوجّه كلية إلى البرّانيّ والسطحي والمصطنع ...

فما الذي يعنيه إستقلال دولة مسلمة وقعت إدارة حياتها العامة في أيدي هذا النوع من الناس ..!؟ وما الذي إستفاده الشعب من هذا الاستقلال أوالحرية ..!؟

إن كل دولة بتقبّلها هذه الطريقة من التفكير الأجنبي معتمدة على الدعم السياسي الأجنبي سواء من الشرق أو الغرب – قد أذعنت للعبودية من جديد .. وهكذا وجدنا أمامنا نوعاً من الاستقلال يعتنق فلسفة أجنبية وطريقة أجنبية في الحياة .. إستقلال يستند إلى المساعدات الأجنبية ورءوس الأموال الأجنبية .. والدعم الأجنبي بصفة عامة .. فالذي اكتسبته هذه الدول – على وجه الحقيقة – إنما هو إستقلال شكلي .. ولكنها لم تحصل على حرية حقيقية ، لأن كل حرية في صميمها هى حرية روحية .. وأي إستقلال لا يحقق هذا الشرط سرعان ما يُختزل إلى مجرد [سلام وطني وعلم جديد] ، وهما عنصران تافهان بالنسبة للاستقلال الحقيقي .. ومن ثم فإن الجهاد من أجل الاستقلال الحقيقي للشعوب المسلمة لابد أن يبدأ من جديد ..!!

جذور العجز:

هذان النوعان من الناس: المحافظون ودعاة الحداثة يمثلان المفتاح لفهم الأوضاع الراهنة للشعوب المسلمة. إنهما وإن لم يكونا السبب الوحيد لهذه الأوضاع إلا أن كلا من الوجهين يعتبر المظهر الخارجي لسبب أعمق .. **ألا وهو**: الحط من قدْر الفكر الإسلامي من ناحية ورفض هذا الفكر من ناحية أخرى ...

يلاحظ بيجوفيتش أن تاريخ الشعوب المسلمة ليس هو فقط تاريخ التأكيد المتصل للإسلام في الحياة العملية ، بل إنه بنفس الدرجة قصة جهل وإهمال وسوء إستخدام بل وخيانة للفكر الإسلامي .. ولذلك فإن تاريخ كل شعب مسلم هو قائمة من المنجزات العبقرية والانتصارات .. ولكنه في نفس الوقت هو قائمة الأخطاء الفاحشة والهزائم المزلزلة .. ويؤكد أن كل نجاحاتنا وإخفاقاتنا (من الناحيتين الأخلاقية والسياسية) هى مجرد إنعكاسات لفهمنا نحن المسلمين للإسلام .. وللكيفية التي طبقناه بها في حياتنا .. و كان ضعف تأثير الإسلام في حياة المسلمين العملية مصحوباً دائماً بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية ...! وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يؤكد هذا التطابق ، كأنّ هذا التطابق هو المصير الذي لا مفرّ منه بالنسب للشعوب المسلمة وأحد قوانين التاريخ الإسلامي نفسه .. فهناك لحظتان متميّزتان في مجرى التاريخ الإسلامي ، إحداهما لحظة ازدهار والأخرى لحظة إنحطاط ، وهما يصوران هذه الحقيقة أصدق تصوير ...

لقد تُوفّى محمد (صلّى الله عليه وسلم) سنة 632م ، وفي أقل من مائة عام بعد وفاته إنتشرت القوة الروحية والسياسية لرسالته على بقعة هائلة من الكرة الأرضية ممتدة من المحيط الأطلسي إلى الصين ومن بحيرة آرال إلى منابع النيل ...

فُتحت سوريا سنة 634م وسقطت "دمشق" أمام الجيش الإسلامي سنة 635م، ووصل الإسلام إلى مصر والهند سنة 641م ، وإلى شمال أفريقيا سنة 647م ، وإلى سمرقند فى آسيا الوسطى سنة 647م .. وأصبح المسلمون على أبواب القسطنطينية سنة 717م .. وفي سنة 720م كانوا في جنوب فرنسا ، وكان هناك مساجد في شانتونج سنة 700م وحوالي سنة 830م وصل الإسلام إلى جزيرة جاوه ...

هذا التوسع الفريد الذي لا يقارن بأي توسع آخر قبله أو بعده قد وفّر مساحة لتطوير الحضارة الإسلامية في ثلاثة عوالم: في أسبانيا والشرق الأوسط والهند ، وذلك على مدى حقبة من الزمن تبلغ حوالي ألف عام ...

إلى أى مدى نحن الآن مسلمون ..؟

هذا السؤال يمكن وضعه بطريقة أخرى: ما الذي يمثله المسلمون في العالم المعاصر .. ؟ يرى بيجوفيتش أن الإجابة على هذين السؤالين واحدة وهى :

أولا نحن مستبعدون أو مهمّشون : ففي نقطة معينة من التاريخ الحديث هي سنة 1919م لم تكن توجد دولة مسلمة واحدة مستقلة .. ولم تتغير الأوضاع بعد هذه النقطة تغيّراً جوهريا ً.

ثانيا نحن غير متعلمين: ففي الفترة ما بين الحربين العالميتين لم توجد دولة مسلمة واحدة بلغت نسبة القراءة والكتابة فيها أكثر من 50% وعند الاستقلال وُجد أن 75% من شعب الباكستان و80% من الجزائريين و90% من النيجيريين يعانون من الأمية المتفشّية . وإذا قارنا هذا الوضع بما ذكره "درابر" Draper عن أسبانيا المسلمة (الأندلس) خلال القرن الحادي عشر الميلادي لتملّكنا العجب ، فقد أكد "درابر" أنه لم يكن يوجد في أسبانيا حينذاك فرد واحد يجهل القراءة والكتابة .. [وهذا من تجلّيات الحضارة الإسلامية التى كانت مزدهرة آنذاك] ...

ثالثا نحن فقراء: فقد كان متوسط الدخل الفردي في إيران سنة 1966 يبلغ 220 دولاراً أمريكيا ً، وفي تركيا 240 دولاراً، وفي ماليزيا 250 دولاراً ، وفي باكستان 90 دولاراً ، وفي أفغانستان 85 دولاراً، وفي أندونسيا 70 دولارا ً، مقارنة بـ 3000 دولار متوسط دخل الفرد في الولايات المتحدة في نفس السنة . وكان إسهام الصناعة في الدخل القومي للدول المسلمة يتفاوت من 10% إلى 20% ، وكان نصيب الفرد من السُّعرات الحرارية في وجبات الغذاء اليومية يبلغ 2000 وحدة في المتوسط مقارنة بـ 3000 إلى 3500 وحدة في أوروبا الغربية ...

رابعا نحن مجتمعات ممزقة: فبدلاً من الحفاظ على مجتمع واحد خال من الفقر الكافر والترف السفيه ، تحولت المجتمعات المسلمة إلى عكس هذه الصورة ، مناقضة في ذلك لتعاليم القرآن التي تحول دون تركيز الثروة في يد فئة قليلة من الناس دون بقية أفراد المجتمع [كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ] فالملكية تنتقل تدريجياً إلى يد الأقلية الغنية .. [الا تنطبق هذه الملاحظة على الأوضاع القائمة إلى اليوم فى بلاد المسلمين ..؟]

يقول على عزت بيجوفيتش : هذا هو حال المسلمين التي سماها البعض بحق (ليل الإسلام المظلم) ، والحقيقة أن هذا الليل قد بدأ أولا بغروب في قلوبنا .. وكل ما حدث لنا وما يحدث لنا اليوم إنما هو صدى وتكرار لما حدث من قبل في داخلنا: [ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ] الأنفال آية 53 .. والعبرة المستخلصة من هذا الموقف كما يراها بيجوفيتش هى إننا لو كُنا قد استمسكنا بإسلامنا إستمساكاً حقيقياً لما أمكن إستبعادنا أو إيقاعنا في الجهالة أو تجهيلنا أو تمزيق وحدتنا .. لقد جاءت كل هزائمنا إبتداءً من غزوة أُحد حتى

هزيمتنا في سيناء لتؤكد هذه الحقيقة التى لامراء فيها وهى أننا عندما نتخلى عن الإسلام يتخلى النصر عنا بالضرورة ...

وتتجلى ظاهرة التخلي عن الإسلام أو هجره بوضوح في محاولات قمع الفكر الإسلامي واستبعاده من الحياة النشطة المتوثبة ، كما تبدو في تحجيم الإسلام إلى حالة من السلبية والتسطيح . ويمكن ملاحظة هذا بأكبر قدر من الوضوح في طريقة تناولنا اليوم للقرآن .. و القرآن هو الفكرة المركزية في الأيديولوجية الإسلامية والممارسة الإسلامية ...

ولابد هنا من الإشارة إلى أن كل تقدّم حدث في الشعوب الإسلامية وكل عصر من عصور الإزدهار قد بدأ بالتأكيد على القرآن .. لم يكن امتداد الفتح الإسلامي – الذي ألمحنا إلى مسلكه العبقري آنفاً والذي إستطاع خلال جيلين أن يصل إلى شواطئ الأطلسي في الغرب وإلى أعماق الصين في الشرق – لم يكن هذا المدّ هو المثل الأوحد بل المثل الأعظم لهذه الحقيقة .. وكل التحولات الكبرى في تاريخ الإسلام تؤكد هذه الحقيقة ...

فماذا كان وضع القرآن في الفترة السابقة على عصر الجمود والتقهقر؟

إن الإخلاص للكتاب لم يتوقف .. ولكنه فقد خصوصيته الفاعلة.. فقد إستبقى الناس في أفئدتهم من القرآن ما أشيع حوله من تصوّف ولا عقلانية .. وبهذا فقد القرآن سلطانه كقانون وكمنهج حياة واكتسب قداسته [كشيئ] ... !!

وفي دراسة القرآن وتفسيره إستسلمت الحكمة للمماحكات اللفظية ، واستسلم الجوهر للشكل ، وعظمة الفكر للمهارة والحفظ .. وتحت التأثير المستمر للشكلية الدينية قلّت قراءة القرآن وكثر الاستماع إلى تلاوته بصوت غنائي ، أما ما يحثّ عليه القرآن [من جهاد واستقامة وتضحية بالنفس والمال ، وهي أمور شاقة بغيضة إلى النفوس الواهنة] كل ذلك ذاب وتلاشى في ضباب الصوت الجميل لتلاوة القرآن وحفظه عن ظهر قلب دون تأمّل في معانيه .. هذه الحالة الشاذة قد أصبحت الآن مقبولة كنموذج سائد بين الشعوب المسلمة .. لأنها تتناسب مع أعداد متزايدة من المسلمين لا يستطيعون مفارقة القرآن ولكنهم من ناحية أخرى لا يملكون القوة أو الإرادة على تنظيم حياتهم وفق منهاجه...

ولعل التفسير النفسي لهذه المبالغة التي يخلعها الناس على التلاوة المنغَّمة للقرآن يكمن في هذه الحقيقة .. فالقرآن يُتلى ثم يُفسر ويتلى .. ثم يُدرس ويُتلى مرة أخرى. وهكذا تتكرر الآية ألف مرة ومرة حتى لا نطبقها في حياتنا مرة واحدة .. لقد أنشئ علم كبير لتحري الدقة المتناهية في تلاوة القرآن حتى نتجنب قضية كيف نمارس القرآن في حياتنا اليومية .. وهكذا تحوّل القرآن (عندنا) إلى صوت مجرد من الوعي ضبابيّ المعنى ...

إن واقع العالم المسلم بكل تناقضاته ، وكل ما فيه من فصام بين الكلمة والفعل، وإنحرافه عن الواجب، وشيوع الفساد والظلم والجبن ، ومساجده الخالية وافتقاره إلى المثل العليا والقدوة وإلى الشجاعة ، وانتشار الشعارات الإسلامية المثيرة والتشدد المتنطع في أداء التكاليف الدينية ، والاعتقاد بدون إيمان حقيقي فعّال – كل هذا ليس إلا انعكاساً برّانيّا للتناقض الأساسي الذي أحطنا به القرآن والذي يتمثل في الحماس المشتعل للكتاب من ناحية والإهمال الكامل لمبادئه في الممارسة العملية من ناحية أخرى ... !!

إن وضع القرآن بيننا بالصورة السلبية التى هو عليها هو السبب الأول والأكبر أهمية للتخلف والعجز الذي تعانيه الشعوب المسلمة .. وهنالك سبب آخر ذو أهمية عامة وهو التعليم القائم أو بالأحرى نظام التربية والتعليم بأوسع معانيه ...

التعليم :

كانت شعوبنا – عبر قرون كثيرة مضت – محرومة من وجود أناس متعلمين تعليماً صحيحاً فعالاً .. وبدلاً من ذلك توفر لهذه الشعوب نوعان آخران من الناس كلاهما غير مرغوب فيه: الجهال والمتعلمون تعليماً خاطئا ً. فلا يوجد في دولة مسلمة واحدة نظام تعليمي مُعَدٌّ إعداداً مناسباً قادراً على التجاوب مع الفهم الأخلاقي للإسلام أو التجاوب مع احتياجات الناس ز. فأصحاب السلطة عندنا إما أنهم قد أهملوا هذه المؤسسة بالغة الحساسية في أي مجتمع ، أو تركوها نهباً للأجانب يتصرفون فيها وفق مخططاتهم. فالمدارس التي يموَّلها الأجانب بتبرعاتهم ويوفرون لها المعلمين والمديرين الذين يجلبون معهم الأيديولوجية والمناهج معهم ، هذه المدارس لا تُعلَّم الناس ليكونوا مسلمين ولا حتى ليكونوا وطنيين .. إنما يحقن النشء فيها (بفضائل) الطاعة والخضوع والانبهار بتقدم المجتمعات الأجنبية وسطوتها وثرائها .. وفيها يُربّون في النُّخبة عقلية التبعية لأنهم يعلمون أن هذه النُّخبة ستحلّ مكانهم في المستقبل بنجاح باهر ، من هنا يشعر أعضاء هذه النخبة بأنهم أجانب في بلادهم ويتصرفون على هذا الأساس ، وممَّا له دلالة كاشفة تلك الكثرة الكثيرة من المدارس التي يديرها الأجانب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .. ولابد أن نتأمل في أسباب هذا الكرم العجيب، وأن نتفحص مناهج هذه المدارس ونحلل محتواها تخليلاً جيّدا ، وأن نتنبه إلى عدم إشتمالها على موضوعات بعينها . حينئذ سيتضح لنا تماماً أن القضية الحقيقية ليست هي ما إذا كان أعضاء النخبة عندنا يرغبون في أن يجدوا طريقاً للوصول إلى شعوبهم والتعرف على طموحاتها ومصالحها الحقيقية ، ولكن القضية هي أنهم وقد تشكّلوا على هذا النحو (التغريبي) لا يمكن أن يهتدوا إلى هذا الطريق على الإطلاق والسبب يرجع إلى تلك القيم والمُثل المجلوبة التي نشأت عليها هذه النخبة ، وإلى تلك الفجوة النفسية التي أقيمت بينهم وبين شعوبهم .

وهكذا لم يعد الإستعمار الأجنبي بحاجة إلى السلاسل الحديدية التى إستخدمها فى الماضى لإخضاع شعوبنا ، فإن الخيوط الحريرية للتعليم الأجنبي لها نفس القوة فى الإخضاع .. ذلك لإنها تشلّ عقول المتعلمين وتشلّ إرادتهم .. وبهذا الوضع التعليمي فإن الأجانب من أصحاب النفوذ وأتباعهم من أبناء البلاد المسلمة ليس عندهم ما يخشونه على مراكزهم .. فبدلاً من أن يكون التعليم مصدراً للتمرد ومقاومة الهيمنة الأجنبية يصبح أكبر حليف للأجانب وأتباعهم [هل يفسر لنا هذا حرص الدول الغربية على نشر مدارسهم على أوسع نطاق فى بلاد المسلمين ؟! وهل يفسر ظاهرة التوسّع الملحوظ اليوم فى الجامعات الأمريكيةالقديمة ، وفى إنشاء جامعات جديدة بريطانية وألمانية وإيطالية وغيرها مما هو قادم على الطريق ...؟!]

المهمّ هنا هو ما يودّ على عزت بيجوفيتش تأكيده والتنبيه إلى خطورته ، وهو أن هذه الفجوة المأساوية بين النخب وبين الشعوب في البلاد المسلمة هى من أسوأ الآفات التى ابتُليت بها المجتمعات المسلمة ومن أبرز عوامل تفككها وإعاقة النهضة بها .. لقد ترسّخ فى وعى الجماهير المسلمة شعور مضاد وريبة تجاه هذه المعاهد التعليمية الأجنبية فرفضوها رفضاً غريزياً .. ومن هنا أصبح النفور متبادلاً .. وقد فسّر الغربيون وأعضاء النُّخب التابعة لهم نفور المسلمين من المدارس الأجنبية تفسيرا خاطئا إذ اعتبروه نفور أناس متخلّفين بطبعهم كُسالى وغيرن ا واعين بأهمية التعليم .. ولكن الحقيقة كما يراها بيجوفيتش هى أن نفور المسلمين من التعليم الأجنبي راجع لإدراكهم أن هذا التعليم يفتقد كل صلة روحية بالإسلام وبالشعوب المسلمة .. وأنه يعمل على تحطيم كل ما يعتز به المسلمون من قيم ومثل عليا فى ثقافتهم الإسلامية وتاريخ حضارتهم ...

لا مبالاة الجماهير المسلمة:

ما جاء به دعاة الحداثة إلى عدد من البلاد المسلمة يعتبر كقاعدة عامة (إتجاهاً لا دينيا) .. يقودهم في هذا شعارات معينة تنادى بفصل الدين عن الحياة السياسية والاجتماعية .. هذا الاتجاه يستدعى إلى الذاكرة قصة الصراع الذي نشب بين الدول القومية وبين الكنيسة الأوروبية في مستهل العصر الحديث . لكن ذلك الذي كان يعنى تقدماً ومتفقاً مع الأوضاع التاريخية في الغرب كان بالنسبة للعالم الإسلامي عملية غير طبيعية ، تعجز عن إحداث أي تغيير إيجابي في حياة شعوب هذا العالم . فالقوميات .. وكبح سلطان الدين والكنيسة الذي

كان يعنى كل شئ في تاريخ الغرب الحديث لا يعنى شيئاً على الإطلاق في تاريخ العالم المسلم ، ولأن هاتين الفكرتين (القومية وعزل الدين عن الحياة العامة) فكرتان غريبتان في أصلهما وتكوينها ، وكانت انعكاساتهما في العالم المسلم عقماً روحياً عاماً. وباستزراعهما في أرض المسلمين إرتفع الستار عن الفصل الأخير في مأساة العالم المسلم.

يقول على عزت : " إذا تصوّرنا العلاقة المزدوجة أو التوافق الداخلي بين عناصر الفكر والقيادة في المجتمع من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى (حيث تمثل النخبة القائدة الفكر والإرادة بينما تمثل جماهير الشعب القلب الدافع والدم المتدفّق) نستطيع أن نتصور أنهما بتعاونهما معاً بتحقق الشرط الأول لأي إنجاز عظيم .. وبدون هذا التعاون أو على الأقل بدون رضاء الجماهير تبقى الأعمال مصطنعة مفتقرة إلى القوة الضاربة . والمشكلة هنا هى أن النُّخب المتحكّمة والحاكمة فى بلاد المسلمين لا تفهم أنه قد يمكن التغلب على سلبية الجماهير وركودها إذا كان ذلك مجرد نتيجة للمقاومة الطبيعية للعمل الشاق أو الهرب من مخاطر الكفاح .. ولكن يستحيل التغلب على هذه السلبية إذا كانت تمثل رفضاً لأهداف الكفاح نفسها ، ذلك لأن الجماهير فى هذه الحالة ترى وتؤمن بأن هذه الأهداف متعارضة مع أعز رغباتها ومشاعرها الحميمة ... !!

هذه الحالة الأخيرة التي نشهدها اليوم – بدرجات متفاوتة – في جميع البلاد المسلمة، حيث يحاول أدعياء الحداثة تنفيذ برامجهم الدخيلة فتراهم يلجأون إلى منافقة الجماهير أحياناً وإلى التهديد أحياناً أخرى .. يدافعون عنها ويحثون على الأخذ بها .. ينشئون تنظيمات ثم يهجرونها إلى تنظيمات أخرى .. يغيّرون الأسماء والشخصيات .. وهم فى كل ذلك إنما يضربون برؤوسهم دائماً في صخرة الرفض العنيد واللامبالاة الدفينة من جانب الناس البسطاء الذين يشكلون الغالبية العظمى للأمة .. ولتوضيح الفكرة هنا يضرب بيجوفيتش مثالا بواحد من قادة النخبة المتغرّبة هو " الحبيب بورقيبة " كنموذج لاتجاه شائع في بلاد المسلمين ، فيقول : كان "بورقيبة يلبس الملابس الأوروبية ويتكلم الفرنسية في بيته ، وكان حريصاً على أن يعزل تونس لا عن العالم الإسلامي فقط بل عن العالم العربي أيضاً .. يعنى سلخها من هويتها الإسامية والعربية .. ومن ثمّ حاصر التعليم الديني وقيّده وألغى جامعة الزيتونة وحارب خرّيجيها .. وكان يدعو لإلغاء الصوم في رمضان لأن الصيام كما زعم (يقلل الإنتاج

) ، ولكـي يجعل مـن نفسـه قـدوة مناسـبة قـام بشـرب عصـير برتقـال علانيـة (علـى شاشـة التليفزيون) في نـهار رمضان . وبعد كل هذا يتعجب "بورقيبـة" من سلبية وإنعدام التأييد من جانب الجماهير التونسية المسلمة [لإصلاحاته التقدميـة ..!] حقاً إن أدعيـاء الحداثـة لو لـم يكونوا بهذا العمى لبطل عجبهم..!.

أودّ أن أضيف هنا ملاحظة فى صميم الموضوع :

ففى مقال نشر بالأهرام في 19 ينـاير 1994 للدكتور فؤاد زكريـا وهو أحد أعمدة العلمانيـة يعجب لحقيقة ويقرّر حقيقة أخرى: فهو يقرر (مصيباً) أن العلمانيين قد أجهدوا أنفسـهم مـن الكـلام ولكـن أحـداً لا يستمع إلـيهم كـأنـهم يخـاطبون بعضـهم بعضـا .. ويعجـب مـن أن العلمانية قد أحيطت بكل صفة سيئة بدون وجه حق ، ونحن لا نرد عليه فقد تكفل بـذلك أ.د. يوسف القرضاوى في كتابه: (الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه) ثم نحيل القارئ إلى كتـاب آخر للمستشـار طـارق البشرى بعنـوان (مشكلتان وقراءة فيهمـا) يقـول فيـه : يؤكـد لنـا التاريخ المعاصر أن النخب والفصائل العلمانيـة قد حكمت بنفسـها أجزاء كثيرة من بلادنـا وشايعت مختلف الأنظمة والدكتاتوريات العسكرية والحزبية ومنحتها رضاها وتأييدها وهى تنكّل بالجمـاهير .. وبمجـرد أن لاح إحتمـال وصـول الإسـلاميين إلـى السـلطة عبـر صـناديق الانتخـاب وقفت هذه الفصـائل صـراحة ضد الديمقراطيـة وهبّ بعضـهم يستعدي السلطات الديكتاتورية والأقليـات البوليسية لا علـى الإسلاميين فحسب بـل علـى الأمـة كلهـا بـل إنـهم يستنفرون الأقليات العرقية والدينية ضد الغالبية المسلمة ... [فهل بقى من عجب عند قادة العلمانية!؟] .

يقول بيجوفيتش :

إن الشعوب المسلمة لـن ترضـى بـأي شـئ يخـالف الإسـلام .. لأن الإسـلام لـيس مجرد مجموعة من الأفكار والقواعد والقوانين ، وإنمـا يتجـاوز هذا كلـه ليصل (فـي أعمـاق الإنسـان المسلم) إلى مكامن حبه وأعزّ مشاعره .. ولذلك فإن كل من ينهض ضد هذا الـدين لـن يجنـى من عمله سوى الكراهية والمقاومة ...

وفى موضع آخر يقول : لقد خلق دعاة الحداثة حالة من الصراع الـداخلي والاضـطراب في المجتمعات المسلمة بحيث أصبح كل برنامج (إصلاحي) سواء أكان إسلامياً أم أجنبياً غيـر قابل للتطبيق . فالجماهير تتطلع إلى مشروع إسلامي ولكنـهم لا يستطيعون القيـام بـه وحدهم بدون نخبة تقودهم .. والنخبة من ناحية أخرى تفرض على الجماهير برامج أجنبيـة ولكنـها لا تجد من هذه الجمـاهير إستعداداً لكـي يسـهموا بعرقهم ودمـائـهم وحماسـهم لتنفيذ هذه البـرامج المسـتغربة فتبقـى أبـدا حبـراً علـى ورق .. وهكـذا تظـل القوتـان فـي تصـادم ، تلغـى إحـداهما الأخرى .. وتبقى على الساحة حالة من الشلل والعجز ...!!

والحق أن هذه الساحة (التعيسة) يمكن أن تشهد نظاماً حياً وازدهاراً وتقدماً .. ولكن لن يكون هذا النظام أو الازدهار والتقدم أوروبياً أو أمريكياً .. كلا .. فإن سلبية الجماهير المسلمة ليست سلبية مطلقة وإنما هي في حقيقتها الطريقة التي يدافع بها الإسلام الشعبي عن نفسه ضد الهجمات الخارجية الأجنبية .. ولكن ما أن يظهر إحتمال لجهاد إسلامي حقيقي فإن المسلم البسيط يبرهن على إستعداده للجهاد والمعاناة بل التضحية بحياته .. وتوجد في التاريخ الحديث أمثلة كثيرة على هذا الموقف رأيناها في تركيا عندما هبت للنضال التحريري ضد اليونان بعد الهزيمة التي لحقت بها خلال الحرب العالمية الأولى ، ورأيناها في المقاومة البطولية للشعب الليبي ضد الاحتلال الإيطالي ، ورأيناها في جهاد الفدائيين ضد الإنجليز في قناة السويس ، وفي حرب التحرير الجزائرية ، وفي تحرير إندونيسيا .. وفي فلسطين .. وفى كل مكان هبّ فيه المسلمون لمقاومة المستعمر الأجنبي. وحيثما يراد إستثارة حماس الجماهير كانت تُرفع الشعارات الإسلامية حتى وإن كانت مؤقتة أو غير مخلصة ... وهكذا أينما وُجد الإسلام تختفي السلبية واللامبالاة ...

يتابع بيجوفيتش ليؤكد أن المشاعر القوية عند الجماهير المسلمة تحتاج إلى فكرة تحفزها وتوجهها .. ولكن لن تكون هذه مجرد أي فكرة ، وإنما يجب أن تكون فكرة تتجاوب مع أعماق المشاعر الإسلامية ومن ثمَّ لابد أن تكون فكرة إسلامية فى صميمها وجوهرها ..

ولكن للأسف الشديد لا نرى في الأوضاع الراهنة إمكانية حدوث أي توافق بين الجماهير المسلمة وبين المثقفين والمفكرين والسياسيين المستغربين فلا أحد من الجانبين لديه الاستعداد لكي يتخلى عن موقفه مهما طالت حالة التوقع والحيرة .. ولكن هناك طريقاً واحداً للخروج من الأزمة وهو تكوين نخبة جديدة تفكر وتشعر إسلامياً .. هذه النخبة عندما يتمّ نضجها سترفع راية المنظومة الإسلامية مع الجماهير المسلمة وتتخذ الخطوات العملية لتطبيقها فى الواقع ...

الدين والقانون:

"النظام الإسلامي" .. ترى ما الذي نعينه بهذه العبارة إذا التزمنا باللغة التي يفكر بها الجيل الحالي ويتحدث ويشعر بها ..؟ أكثر التعريفات للنظام الإسلامي إيجازاً هي الوحدة بين الدين والقانون .. بين التربية والسلطة .. بين المثل الأعلى والمصلحة . بين الجماعة الروحية والدولة .. بين الإرادة والقوة .. والنظام الإسلامي باعتباره المركّب من هذه المكوّنات جميعاً يفترض فرضين أساسيين: مجتمعاً إسلامياً وحكماً إسلامياً .. الأول هو مادة النظام والثاني هو شكل هذا النظام ، فالمجتمع الإسلامي بدون السلطة الإسلامية مجتمع ناقص مفتقر إلى القوة .. والحكم الإسلامي بدون مجتمع إسلامي إما أن يكون "طوبياً" خيالية وإما عنفاً وقهراً ...

وبصفة عامة لا يوجد المسلم كشخص مفرد ، فإذا أراد أن يحيا وأن يستمر في البقاء كمسلم عليه أن يخلق بيئته .. أن يقيم جماعة ونظاما ً. فالمسلم بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن يغيّر العالم وإما أن يستسلم هو للتغيير .. ولم يحدث في التاريخ ظهور حركة إسلامية حقيقية صادقة مع نفسها لم تكن في نفس الوقت حركة سياسية .. ذلك لأن الإسلام بطبيعته وإن كان ديناً إلا أنه في نفس الوقت فلسفة حياة .. كما أنه نظام أخلاقي ، وتنظيم وأسلوب ، ومناخ .. إنه – في كلمة واحدة – طريقة حياة متكاملة ولا يستطيع الإنسان أن يكون مؤمناً بالإسلام ثم يتصرف ويتعامل مع الناس ويستمتع بوقته أو يحكم بطريقة غير إسلامية .. فهذه الحال المتنافرة تورّث النفاق (نحمد الله ونثنى عليه في المسجد ونخادعه خارج المسجد)..! إنها حالة تنتج أناساً تمزقت نفوسهم بالصراعات المهلكة .. فهم لا يستطيعون التنكر للقرآن من ناحية ، ولا يجدون في أنفسهم القدرة على الجهاد لتغيير الظروف التي يعيشون فيها من ناحية أخرى .. أو تنتج أناساً كالرهبان (ينسحبون من الدنيا لأن الدنيا ليست إسلامية) .. وهناك نوع ثالث من الناس شعروا بأن المعضلة تطوّقهم من أقطارهم فانفكوا عن الإسلام وتقبّلوا الحياة والعالم كما وجدوهما .. أو بالأحرى كما صنعهما لهم الآخرون .. النظام الإسلامي – على عكس ذلك – مجتمع متحرر من هذه الصراعات ، فهو إطار من العلاقات يجد المسلم فيه نفسه على اتّساق مع بيئته ...

فإذا سأل سائل: ما المجتع المسلم ..؟ نقول إنه المجتمع المؤلف من المسلمين، ونعتقد أننا بهذه العبارة نجيب على السؤال إجابة كاملة أو قريبة من الكمال ..

ويعنى هذا التعريف أنه لا يوجد نظام مؤسسات وعلاقات وقوانين منفصلاً عن الناس الذين هم هدف هذا النظام ثم يقال إن هذا نظام إسلامي ، فلا يوجد نظام إسلامي ولا غير إسلامي قائم بذاته .. وإنما يكون النظام إسلامياً أو غير إسلامي فقط بالناس الذين يؤلفون هذا النظام ...

يـؤمن الأوروبـي بأنــه فـي الإمكـان تنظـيم المجتمـع بقـوة القـانون . فمنـذ جمهوريـة أفلاطون ومـا تلاهـا مـن أفكـار طوباويـة بمـا فـي ذلك الاشـتراكية الماركسية .. منـذ ذلك الـزمن البعيد إلى الآن والروح الأوروبية دائبة البحث عن نموذج واحد يمكن بواسطته تغيير العلاقات بين الناس والجماعات لإيجاد مجتمع مثالي ..

أما القرآن فإنـه يشتمل على عدد قليل من القوانين (الأحكام) بينما ينصبّ فـي معظمـه على العقيدة ومبادئ الدين ، مع حفز للمؤمنين على أن يتخذوا من الإجراءات العمليـة لإقامـة حياتهم ومجتمعهم على أساس من هذه المبادئ ..

ويلاحظ بيجوفيتش هنا ملاحظة هامة عن ظاهرة خطيرة : مُفادها أن كثرة القوانين فـي مجتمع ما وتشعّبها وتضاربها لايدل علـى صحّة المجتمـع وإنمـا هو علامـة مؤكدة علـى وجود شئ فاسد في هذا المجتمع .. ولمعالجة هذه الحالة ينصح بجوفيتش بضرورة التوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء في تعليم الناس وتربيتهم .. فعندما يتجاوز الفساد في بيئة ما حدّاً معينـاً يصبح القـانون عقيمـاً .. يسقط فـي يـد فئـة فاسدة مـن منفذي العدالـة و يصبح خاضـعاً للتحايـل الظـاهر و الخفـيّ .. ويفقد قيمتـه وأثـره واحترامـه بـين النـاس [ومـن أبـرز المؤشّرات الدّالـة علـى ذلك عدم تنفيذ الأحكام القضـائية .. وتعطيل القوانين المعتادة بقوانين إستثنائية مثل قانون الطوارئ .. وتهميش القاضى الطبيعى لصـالح القضـاء العسكري الـذى لا يخدم العدالة وإنما يخدم إملاءات السلطة الساسية] ...

لقد كانت الخمر والميسر والشعوذة رذائل متفشية وعميقة الجذور فـي بـلاد العرب أيام الجاهليـة ، فلمـا جـاء الإسـلام قضـى عليهـا القرآن بآيـة واحـدة : أن الله قد حرم هذه الرذائل جميعاً {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} .. ولكن ما أن ضعف الدين حتى عادت هذه الرذائل بكامل قوتها .. ولـم يعق تفاقمها إرتفـاع المستوى الثقافي الـذي حققتـه هذه المجتمعات كمـا لـم يفلـح قـانون تحـريم الخمـر الأمريكـي الـذي أُعلـن باسم العلم الحديث والذي قامت علـى تنفيذه – بكل قوتهـا – مجتمعات علـى أكبـر درجـة مـن التنظيم في العالم (هى الولايات المتحدة الأمريكيـة نفسـها) ، ولكنهـا أُجبرت فـي النهايـة علـى التخلي عن هذه القوانين فـي الأربعينيـات مـن القرن (العشرين) بعد محـاولات لا جدوى منهـا كانت حافلة بالعنف والجرائم .. ولقد جرت محاولة مثيلة لتحريم الخمر في الدول الإسكندناوية إنتهت هي أيضاً بالفشل الذريـع ...

كل هذا يؤكد لنا بوضوح أن المجتمع لا يمكن إصلاحه إلا باسم الله وعن طريق تعليم الإنسان وتربيته ، وعلينا أن نسلك الطريق الذي يؤدى بنا إلى هذه الغاية ...

إن الإسلام رغم أنه يؤكد على المدخل الروحي الجُوّاني في كل تعاليمه إلا أنه لم يتوقف عند هذه النقطة .. وإنما إتجه إلى تحطيم السلاح الذي يمسك به الشيطان .. وفى هذا يقول بيجوفيتش : إن الإسلام إذا لم يبدأ بالإنسان في الأمور التي تتعلق بعلاقة الإنسان بالعالم فإنه لا يكون ديناً .. ولكن أن يقف عند حدود هذه النقطة فقط فإنه يصبح ديناً مجرداً .. أو يكون مجرد تكرار أو إعادة لتعاليم عيسى عليه السلام .. التي تركز على الجانب المثالي والخالد في الكائن الإنساني .. مع طرح أمور الدنيا جانبا [إعط مالقيصر لقيصر ومالله لله] .. فهناك فصل كامل بين شئون الروح وشئون المادة .. ولكن الإسلام جمع في خطابه بين الإنسان الحي المتكامل كما صورة القرآن وتمثّل عمليًا في شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلّم) وبين الطبيعة أو العالم الخارجي .. فكان بذلك تعبيراً عن الإنسان الكامل وعن الحياة من جميع جوانبها .. وفي هذا الإطار توحّد الإيمان مع القانون وتوحد التعليم والتربية مع السلطة ، وهكذا أصبح الإسلام نظاماً ...

ليس الإسلام مجرّد دين:

يمثل الإسلام في تاريخ تطور الأديان تحوّلا لا جدال فيها ، فهو يختلف عن غيره من الأديان والمذاهب والفلسفات جميعا ً، لقد جاء الإسلام بمدخل يعكس فلسفة جديدة كل الجدّة. تتطلب هذه الفلسفة من الإنسان أن يحب – في وقت واحد – حياته الجُوّانية والبرّانيّة .. الحياة الأخلاقية والحياة الاجتماعية .. الحياة الروحية والمادية معاً .. وبدقة أكثر تقتضي هذه الفلسفة من الإنسان أن يتقبل بوعي كامل وإرادة كاملة جميع جوانب هذه الحياة باعتبار أنها تحقق إنسانيته وتؤكد المعنى الحقيقي لحياته في هذه الدنيا:

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ، { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } ..

وبترجمة هذا إلى لغة الحياة اليومية يمكن أن نقول: إن الذي يؤمن بأن الحياة يجب تنظيمها – ليس بالإيمان والصلاة فحسب ولكن أيضاً – بالعلم والعمل ، والذي تتسع رؤيته للعالم بحيث يستوعب بل يدعو إلى قيام المسجد والمصنع جنباً إلى جنب ، والذي يرى أن الشعوب لا يكفى إطعامها وتعليمها فقط وإنما يجب أيضاً تيسير حياتها والمساعدة على سموّها الروحي ، وأنه لا يوجد مبرر للتضحية بأحد هذه الأهداف في سبيل الآخر، هذا الإنسان ينتمي حقاً إلى الإسلام ...

فإذا أضفنا إلى ذلك "الإيمان بالله" تمثلت أمامنا الرسالة الأساسية للقرآن التي تنطوي على الإسلام في جملته ، وما عدا ذلك إنما هو تفصيل للمجمل وبيان له ...

هذا "السيناريو" الإسلامي – إلى جانب إشتماله على مبدأ النظام الإسلامي – يؤدى إقتران الدين والسياسة فيه على نتائج أخرى بارزة ذات أهمية مبدئية وعملية كبرى.

أول وأهم هذه النتائج هي بالتأكيد تنافر الإسلام مع أي نظم "لا إسلامية" فلا يمكن أن يوجد سلام أو تعايش بين الدين الإسلامي وبين المؤسسات الاجتماعية والسياسية اللاإسلامية [أى التى تتنافى مع مبادئ الإسلام وقيمه وآدابه وأخلاقه] ولعل الإضطربات والإنقلابات العسكرية التى سادت فى البلاد المسلمة خلال فترة معينة من التاريخ المعاصر كانت على الأغلب نتيجة لمجافاتها لروح الإسلام الذي يشكل أعمق المشاعر وأكثرها أصالة عند الشعوب في هذه البلاد ...

يقول على عزت بيجوفيتش : إن الإسلام وهو يؤكد حقه في تنظيم دياره بنفسه من الواضح أنه يستبعد أي أيديولوجية أجنبية تحاول العمل في مجاله الحيوي الخاص به . ومن ثمّ فلا مكان للعلمانية في ساحة الإسلام .. وعلى الدول (المسلمة) أن تلتزم بمفاهيم الأخلاق الدينية وأن تقوم بتعزيزها ...

تلك هي أول نتيجة لفهم الإسلام كنظام متكامل ، أما النتائج الثلاث الباقية التي قد تساويها في الأهمية وإن كانت أقل درجة في حصرها فنلخصها فيما يلى:

أولاً: عندما توجّه الإسلام إلى هذه الدنيا أمرنا بتنظيمها على أحسن طراز ممكن من التنظيم، فلا شئ يمكن أن يجعل الدنيا أفضل حياة ثم يرفضه المسلم بدعوى أنه غير إسلامي ..

ثانياً: أن تنفتح على الطبيعة معناه أن تنفتح على العلم والمعرفة ، ولكي يكون الحل إسلامياً لابد أن يتحقق فيه شرطان : أن يكون على أكبر درجة من الكفاءة وعلى أقصى درجة من الإنسانية في نفس الوقت ، ومن ثم لابد أن يعكس توافقاً على أعلى مستوى بين العلم والدين ..

ثالثاً: إن الإسلام بما تنطوي عليه طبيعته من تزاوج بين الدين والعلم .. بين الأخلاق والسياسة .. بين الفرد والمجتمع .. بين الروحيّ والماديّ (وتلك هي القضايا التي تشطر العالم بلا رحمة إلى شطرين متصارعين) – هذا الإسلام يستعيد دوره كفكر وسط بين الأفكار المتنازعة ويستعيد العالم الإسلامي دوره كأمة وسط في هذا العالم المنقسم على نفسه .. إن الإسلام وهو الذي يبشر بدين يخلو من الأساطير وبعلم يخلو من الإلحاد يمكن أن يكون مثار اهتمام الناس جميعاً من كل لون وجنس ...

إشكاليات النظام الإسلامي في الوقت الراهن:

يقول على عزت بيجوفيتش : توجد مبادئ إسلامية لا تتغيّر هي التي تحدد العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والجماعة ، ولكن لا توجد نظم إسلامية اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية منزّلة ، فالمصادر الإسلامية لا تحتوى على أي وصف لهذه النظم . وستختلف الطريقة التي سيدير بها المسلمون اقتصادهم وينظمون بها مجتمعهم ويدبرون شئون الحكم في المستقبل عن الطريقة التي أداروا بها الاقتصاد ونظموا المجتمع وحكموا في الماضي .. فمهمة كل جيل في كل عصر أن يستحدث من الطرق والوسائل لتطبيق المبادئ الأساسية للإسلام التي لا تتغير في عالم لا خلود فيه بل خاضع للصيرورة الدائمة .. وعلى جيلنا أن يتقبل المخاطرة وأن يقوم بالمحاولة ...

ولأنني على وعى بقصور التعريفات المتعلقة بهذه المبادئ لذلك أحصر مهمتي في إطار عرض للمبادئ التي تبدو الآن ذات أهمية كبرى بالترتيب التالي:

1) الإنسان الفرد والجماعة:

المجتمع الإسلامي جماعة منظمة من المؤمنين . وليس ثمة خلاص خارجي للإنسان والمجتمع باسم العلم أو الثورة أو الاشتراكية . فأي خلاص لا يتضمن تحوّلاً نحو حياته الجوانية وإعادة تشكيل الإنسان وتجديد حياته الروحية هو خلاص مزيّف ..

المجتمع الإسلامي لا يمكن إقامته على أساس من المصالح الاقتصادية والاجتماعية فحسب ولا على أي أساس خارجي تقنى آخر .. ذلك لأن هذا المجتمع يتضمن في بنيته على عنصر ديني ووجداني للانتماء .. ويبدو هذا العنصر أكثر ما يكون وضوحاً في "الجماعة" الروحية باعتبارها النواة الأساسية في بناء المجتمع الإسلامي ..

فعلى خلاف المجتمع التجريدي الذي يرتبط الأعضاء فيه بعلاقات برّانية نجد أن الجماعة (الإسلامية) مجتمع جوّاني حقيقي يقوم على أساس من العضوية الروحية ، حيث العلاقة فيه بين الناس هي علاقة تآلف شخصي مباشر ، فهي علاقة إنسان بإنسان وليست علاقة عضو مجهول في مجتمع تجاه عضو آخر مساوٍ له في المجهولية .. إن الجماعة (كوسيلة للتعارف والتقارب بين الناس) تسهم في توحيد المجتمع وإشاعة الألفة فيه .. كما تساعد على تبديد الشعور بالعزلة والاغتراب الناتج من التوسع في استخدام التطبيقات التقنية والحياة الحضرية المتنامية ..

وفضلاً عن ذلك تخلق الجماعة نوعاً من الرأي العام يعمل دون اللجوء إلى العنف (ولكن بفاعلية) ضد من تحدّثه نفسه الخروج على المعايير الاجتماعية والأخلاقية .. في

الجماعة لا يوجد أحد بمفرده ، وهذه حقيقة ذات معنيين: فالإنسان ليس وحده يفعل ما يحلو له ، ولا هو وحده محروماً من المؤازرة المادية والمعنوية .. فإذا لم يشعر مسلم بأنه قريب من الآخرين فذلك يعنى أن المجتمع المسلم قد أخفق (في تحقيق الأخوة الإسلامية) ..

يريد الإسلام أن يمد الإنسان يد العون إلى أخيه الإنسان بطريقة عفوية مخلصة. وإلى أن يتحقق هذا لا يصح أن نعتبر أنفسنا قد كسبنا شيئاً في إسلامنا على وجه الحقيقة. إن الإسلام لا يتلاءم مع موقف يتوجّب فيه على الدولة أن تتدخل (بصفة دائمة) بسلطتها لحماية الناس بعضهم من بعض ، فذلك وضع قد يقبله الإسلام بصفة مؤقتة وتحت ظروف معنية .. فالسلطة والقانون أداتان للعدالة ، أما العدالة نفسها ففي قلب الإنسان ، فإذا لم توجد فيه فلا وجود لها على الإطلاق ...

2) المساواة بين الناس:

قرر القرآن حقيقتين على درجة قصوى من الأهمية هما وحدانية الله والمساواة بين الناس .. قرر القرآن هاتين الحقيقتين بوضوح وصراحة لا لبس فيهما بحيث لا يمكن تفسيرهما إلا تفسيراً حرفياً واحداً: هو لا إله إلا الله .. وأنه لا يوجد شعب مختار أو جنس أو طبقة متميزة فالناس جميعاً سواسية ...

إن الإسلام لا يقبل تقسيم الناس أو تصنيفهم طبقاً لمواصفات خارجية موضوعية كالطبقة مثلا .. فالإسلام باعتباره حركة دينية أخلاقية يرى أنه من غير المقبول وجود أي تمييز بين الناس لا ينطوي على معيار أخلاقي ز. فإذا كان الناس مختلفين حقاً فإنه يجب التمييز بينهم على أساس من هم على وجه الحقيقة .. أعنى التمييز بينهم من حيث قيمتهم الروحية والأخلاقية فقط { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} فجميع الناس المستقيمين بصرف النظر عن الطريقة التي يكسبون بها قوتهم اليومي ينتمون إلى جماعة واحدة ، كما ينتمي جميع الأشرار والفاسدين إلى فئة واحدة بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية أو مواقعهم في العمل ...

الغاية لا تبرّر الوسيلة:

يجوز في الجهاد من أجل إقامة نظام إسلامي إ ستخدام جميع الوسائل فيما عدا وسيلة واحدة ألا وهي الجريمة ...

فلا أحد يملك الحق لتشويه وجه الإسلام ولا الإساءة إلى هذا الجهاد باستعمال العنف الجامح والإسراف في استخدام القوة .. وعلى المجتمع الإسلامي أن يؤكد من جديد أن العدالة هى أحد أسسه الراسخة .. إن القرآن لم يأمرنا بحب أعدائنا ، ولكنه يأمرنا بطريقة صريحة قاطعة بأن نعدل معهم بل أن نعفو ونصفح عنهم: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} .. { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } فاستخدام القوة يجب أن يخضع لهذه المبادئ ...

لقد أدى مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) إلى جرائم لا حصر لها .. وينبغى أن يترسّخ فى أذهاننا هذه الحقيقة : أن الغاية النبيلة لا يمكن الوصول إليها بوسائل دنيئة .. كما أن إستخدام الوسائل الدنيئة من شأنه أن يحطّ من قيمة أي غاية ويعرّضها للخطر .. وكلما قوِيَت أخلاقنا كلما قلّت حاجتنا إلى استخدام العنف .. فالعنف (في مجال العقيدة) سلاح يلجأ إليه الضعفاء لا الأقوياء .. وما لا يمكن تحقيقه بالقوة يمكن تحقيقه بالكرم والثبات والشجاعة: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} .. {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) ...

الوحدة بين المسلمين :

يلاحظ بيجوفيتش أن البرامج والمشروعات في مجالات التعليم والبحث العلمي والاقتصاد والدفاع تتكلف أرقاماً فلكية ، فهي تتطلب حشداً من القوى البشرية وتجميع الموارد مما لا قبل للأمم الكبرى بها ناهيك عن الأمم المتوسطة أو الصغرى ، إنها لا تتوافر إلا لتجمعات من الأمم .. إن دولة لا تستطيع حشد مائتي مليون نسمة من السكان وأن تحقق مائتي مليار من الدولارات في دخْلها القومي لا يمكن أن تواصل التقدم خطوة واحدة ، وعليها أن تقنع بمركز متواضع في هذا العالم .. إنها لا تستطيع أن تحكم نفسها ناهيك بحكم غيرها . ولم تعد معدّلات النمو عاملاً حاسماً في تقييم الأمم فقد حلت مكانها تلك الأرقام التي أشرنا إليها .. فلا شك أن التنمية الصينية أقل بكثير من التنمية في فرنسا وإنجلترا ولكنها بفضل الحشد الهائل من البشر والموارد تبدى في مجال المنافسة الراهنة تفوقاً ملحوظاً [وقد تحققت الآن توقعات بيجوفيتش رغم أنه صرّح بها منذ أكثر من ثلاثين عاما] .. هذا الوضع يعنى أن هنالك فرصة أمام العالم المسلم – وهو عالم متخلّف – ولكنه فسيح الأرجاء يفيض بالثروات الطبيعية ...

وهناك أمر آخر يتطلب جهوداً عاجلة مكثفة في البلاد المسلمة . فالتخلف الاقتصادي والفكري في هذه البلاد يزداد يوماً بعد يوم نتيجة للزيادة المطردة في تعداد السكان . فمثلاً في مصر وباكستان أكبر معدلات الزيادة السكانية في العالم اليوم . وطبقاً لبعض التقديرات يستقبل العالم المسلم كل عام عشرين مليون مولود جديد فإذا استمر النمو السكاني بالمعدلات الراهنة فإن العالم المسلم سيتضاعف عدده داخل حدوده الحالية في نهاية القرن العشرين .. فهل نستطيع حينئذ أن نستقبل ، ونطعم ونوفّر أماكن في المدارس ، ونوفر أعمالاً ووظائف لهذه الملايين التي نتوقع ولادتها ..؟ هذا النمو الدرامي للسكان إذا لم يصحبه – على نفس المستوى من السرعة – تقدّم اقتصادي واجتماعي فإنه ينطوي على مخاطر كثيرة لا يعلم مداها إلا الله . لقد ابتلع هذا التضخم السكاني كل زيادة في الإنتاج بحيث أصبح الدخل القومي في أكثر البلاد المسلمة اليوم أدنى مما كان عليه منذ عقدين سابقين. وبدلاً من أن تكون هذه الزيادة السكانية عنصر قوة في عالم إسلامي متّحد، أصبحت مصدر بلاء وأزمات ومدعاة لليأس في عالم مقطّع الأوصال ..

ومن الواضح أن البلاد المسلمة كل واحدة بمفردها لا تستطيع أن تتغلب على هذه المشكلة .. ولكننا نستطيع أن نواجه هذا الوضع – وفي نفس الوقت – نعوّض سنوات التخلف والجمود من خلال نوع جديد من الوحدة . فما لا يقدر على حله العرب أو الأتراك أو الإيرانيون أو الباكستانيون وحدهم يستطيع المسلمون جميعاً معًا حله بجهد مشترك موحّد.

كل دولة مسلمة لا يمكنها أن تبنى رخاءها وحريتها إلا إذا كانت بفعلها هذا تبنى أيضاً رخاء وحرية جميع المسلمين .. فالكويت وليبيا – وهما دولتان غنيتان – لا يمكنهما أن يبقيا جزيرتين من الرخاء في بحر من البؤس والشقاء .. فإذا لم تبرهن الدولتان على رغبتهما في التضامن الإسلامي وعلى إرادتها مساعدة جيرانهما من البلاد المسلمة الأخرى، وإذا سيطرت عليهما بدلاً من ذلك الأثرة والأنانية .. ألا يكون هذا دعوة لأن تحذو حذوهما الدول المسلمة الأخرى ..؟ مما يؤدى إلى الكراهية والاضطراب الذي يطمع فيه الأعداء ..؟ إن الدول المسلمة الغنية عندما تقوم بواجبها الإسلامي فإنها بذلك إنما تتصرف بما يحقق مصالحها الخاصة على أحسن وجه ...

البديل الذي لا مفر منه أمام كل دولة مسلمة واضح: فإما أن تتحد مع غيرها من الدول المسلمة الأخرى فتضمن بهذا الاتحاد بقاءها وتقدمها وقوتها في مواجهة مطامع الأعداء ، وإما أن يزداد تخلفها يوماً بعد يوم ثم ينتهي بها المصير إلى السقوط في هوّة التبعية تحت رحمة الدول الأجنبية الغنية .. [توقّع آخر لبيجوفيتش وتحذيرمنه تحقّق الآن فقد سقط الجميع تحت وطأة الهيمنة الأمريكية والقواعد العسكرية الأمريكية المنتشرة فى كل مكان ...!!] ..

يتابع بيجوفيتش الكشف عن أهمية الوحدة بين المسلمين فيقول : اللحظة التاريخية الراهنة تعطى لهذه الوحدة بعداً جديداً .. فالوحدة لم تعد مجرد أمنية طيبة تداعب خيال

المثاليين والحالمين ، وإنما أصبحت ضرورة لا مناص منها ، بل أصبحت قانوناً للبقاء وشرطاً لاحترام الذات في عالمنا المعاصر ، وأما الذين يكرّسون التشرذم الراهن بين الدول المسلمة لأي سبب أو دافع فإنهم يقفون بمقاصدهم وأهدافهم في صفوف الأعداء ...

خلاصــة :

عرضنا لبعض الأفكار الرئيسية وبعض المشكلات الجوهرية للنهضة الإسلامية وهي التي تستولي على عقول الناس بصفة متزايدة باعتبارها تحولاً عاماً للشعوب المسلمة خلقياً وثقافياً وسياسياً . ففي وسط الهزائم المتلاحقة والإحباطات المطْبقة تأتي فكرة النهضة الإسلامية لتشيع الأمل من جديد وتفتح طريقاً لإنقاذ منطقة فسيحة الأرجاء من هذا العالم ..

ولا يوجد مسلم يشعر (بأن إرتباطه بالإسلام ليس مجرد صدفة بل ارتباط منهج والتزام) ثم يرفض هذه الرؤية .. إلا أن كثيراً من المسلمين الحيارى سوف يتساءلون: أين لنا بالقوة التي تحقق هذه الرؤية ...؟

وللإجابة عن هذا السؤال يشير بيجوفيتش إلى الأجيال المسلمة الناشئة .. إلى هؤلاء الشباب الذين سرعان ما أن يشبّوا عن الطوق .. هذه الأجيال التي تشكل ما يقرب من مائة مليون فتى وفتاة أو يزيدون .. وُلدوا في رحاب الإسلام ونشأوا على مرارة الهزائم والامتهان .. وتوحّدوا على الوطنية الإسلامية .. هؤلاء الشباب سوف يرفضون العيش على أمجاد الماضي وعلى المعونات الأجنبية ، وسوف يجتمعون حول أهداف يتحقق فيها الصدق والحياة والكرامة .. وسيحملون في قلوبهم القوة القادرة على تحقيق هذه المهمة العسيرة وعلى التصدي لكل التحديات .. [لاحظ أن بيجوفيتش شديد الإيمان بالشباب المسلم وما يمكنهم أن يحققوه لمستقبل هذه الأمة ..]

لم يكن ممكناً أن يظهر مثل هذا الجيل من قبل ، فقد كان علينا أن نعيش عصر الوهم والأخطاء حتى نهايته .. حتى ينكشف لنا بجلاء عجز الآلهة الزائفة وعجز الزعماء الأوحدين .. والآباء السياسيين ..وعجز أدعياء الإنقاذ الوطنى والإصلاح الإجتماعي.. وعجز الملوك و"المهدي المنتظر .. فعلى يد هؤلاء جميعاً تجرّعنا مرارة الهزيمة في سيناء، وهم الذين وضعوا إندونيسيا في مهب الأخطار ، وهم الذين جعلوا باكستان دائمة الاضطراب .. لقد تحدثوا إلينا

كثيراً عن الحرية والرخاء والتقدم .. ولكننا لم نلق على أيديهم سوى الطغيان والفقر والفساد .. كان هذا كله ضرورياً لكي نصل إلى لحظة الصحوة .. كان هذا كله ضرورياً لميلاد جيل جديد ، يرى بوضوح أن كل هذا لم يكن سوى تيه وضلال لا جدوى فيه .. وأن ثمة طريقاً واحداً لخروج العالم المسم مما يتخبط فيه : أن يعود إلى منابعه الروحية والمادية الخاصة به ألا وهي الإسلام والمسلمون ...

العالم المسلم اليوم خليط عجيب من أجناس وشعوب وقوانين وسلطات شتى، ولكن يوجد شئ واحد في كل ركن من أركان هذا العالم يتقبله جميع المسلمين بنفس الاحترام والإخلاص ألا وهو القرآن .. إنه نفس الشعور تجده في جزيرة جاوه كما تجده في الهند وفي الجزائر وفي نيجيريا .. شعور بالانتماء لأمة إسلامية واحدة .. هذا الشعور الفطري بالانتماء إلى القرآن وإلى الأمة الإسلامية كامن في قلوب ملايين كثيرة من عامة الناس .. إنه شعور يمتلك مخزوناً هائلاً من الطاقة الكامنة .. ويمثل حقيقة واحدة في أنحاء العالم المسلم اليوم .. ولذلك فإن العالم المسلم يعتبر جماعة روحية ذات أبعاد عالمية .. ولعلها هي الجماعة الروحية الوحيدة متعددة القوميات التي لا تزال حية في العالم إلى هذا اليوم (بصرف النظر عن كونها لم تحظ بعد بأي قدر من التنظيم) ...

وكجزء متكامل مع هذه المشاعر .. ونتيجة لتأثير الأخلاق الإسلامية على مدى القرون – تصادفنا على صورة حكمة شعبية – أفكار حية تتعلق بالمساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية والتسامح والرحمة والإحسان والرفق بجميع المخلوقات .. هذه الحقائق في حد ذاتها لا تعنى وجود عالم أفضل وأكثر إنسانية (متحقق بالفعل) ولكنها تعنى وعوداً بعالم من هذا القبيل ...

هذه المشاعر تدل على أن العالم المسلم لم يمت وإنما لا يزال حياً ينبض بالحياة .. فحيث يوجد الحب والشعور بالأخوة الروحية لا يوجد موت بل حياة .. إن العالم المسلم ليس صحراء مقفرة وإنما هو تربة عذراء في انتظار يد الزارع .. وبفضل هذه الحقائق فإن مهمتنا تصبح واقعية قابلة للتحقيق .. إن مهمتنا تتمثل في تحويل هذه المشاعر (الكامنة) إلى قوى فعالة ومؤثرة .. فالإخلاص للقرآن لابد أن يتحول إلى تصميم على تطبيقه، وأن تتحول الجماعة الإسلامية المبينة على الوجدان إلى جماعة واعية منظمة ، وأن يتحول حب

الإنسانية إلى أفكار واضحة لتصبح هي المحتوى الأخلاقي والاجتماعي للقوانين والمؤسسات (في المجتمع الإسلامي الناهض) ..

فمن الذي سيقوم بهذا التغيير وكيف يمكن تحقيقه ..؟

إن كل عمل يُراد به التأثير على الأحداث لابد أن يكون عملاً إجتماعياً .. وكل نضال ناجح لابد أن يكون نضالاً مشتركاً منظماً .. ولن يكون الجيل الجديد قادراً على القيام بمهمته في التغيير إلا إذا وضع طموحاته ومثاليته في قالب حركة منظمة يقترن فيها الحماس والقيم الشخصية للأفراد بأساليب العقل المنسّق المشترك وتأسيس مثل هذه الحركة بهدف واحد وبرنامج واحد هو شرط ونقطة إنطلاق للنهضة في كل دولة مسلمة …

على هذه الحركة أن تحشد في إطار واحد ما قد تم بناؤه بالفعل وترفع بناء ما لم يكتمل بنيانه .. عليها أن تدعو الناس وأن تستنهض الهمم .. وأن تحدد الأهداف وتوفر الوسائل لتحقيقها .. إنها ستبث الحياة والفكر وروح العمل في كل مكان .. وستصبح الضمير والإرادة لعالم يصحو من نوم طويل عميق … !!

يقول على عزت بيجوفيتش وكأنه يطلق صيحته الأخيرة إلى أمته الإسلامية قبل أن ينتقل إلى عالم الصمت : إننا ونحن نبعث بهذه الرسالة إلى جميع المسلمين في أنحاء العالم نود أن نؤكد بكل وضوح أنه لا يوجد أرض ميعاد ولا صانعو معجزات ولا مهدي منتظر .. فليس أمامنا سوى طريق واحد فحسب .. هو طريق العمل والجهاد والتضحية .. ولا ينبغي – ونحن في لحظات الشدة – أن ننسى أمرين: أننا نستمد العون والبركة من الله ، والتأييد من إجماع أمتنا ورضاها …

رحمة الله عليك أيها المجاهد المخلص والمفكر الإسلامى العظيم والحاكم الزاهد .. قضيت أكثر سنوات حياتك وشبابك فى سجون ومعتقلات الطّغاة .. ورغم كل التهديدات والمغريات والمخاطر بقيت قويا شجاعا صُلبا لاتنكسر .. لم تُغرك القوة والسلطة أن تنتقم ممن ظلموك بل صفحت عنهم .. وخرجت من الدنيا نظيف اليد نظيف القلب .. وستبقى صيحتك الخالدة تدوّى فى أسماع المسلمين وقلوبهم حتى يأذن الله بتحقيق رؤيتك فى نهضة الأمة وانتصارها …